ملخصات

غراس
للإنتاج الفكري

ملخص كتاب

مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي

لمالك بن نبي

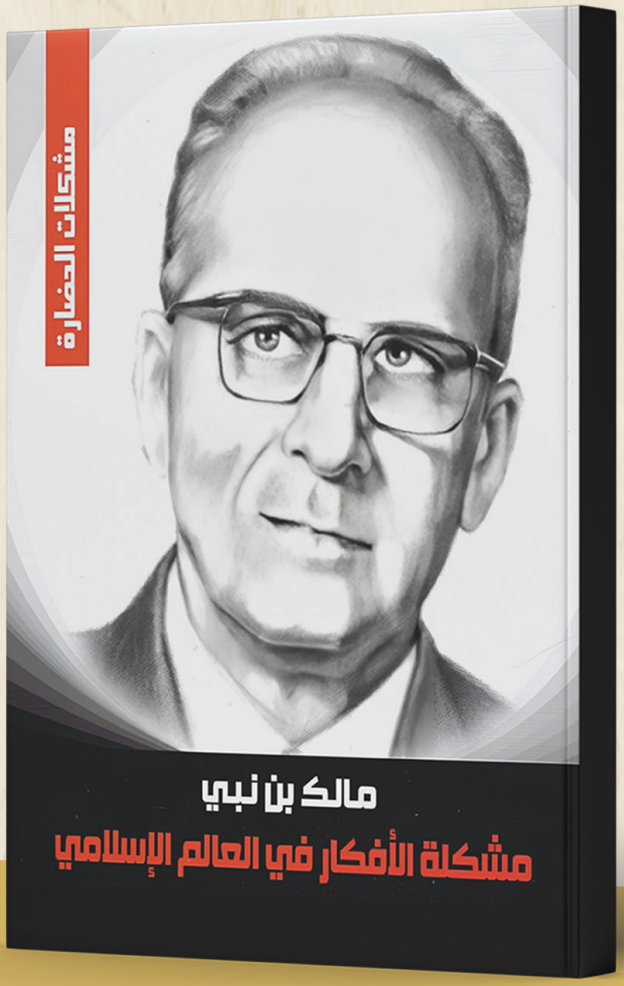

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي من أهم ما ألف الفيلسوف والمفكر الجزائري مالك بن نبي في سلسلة «مشكلات الحضارة» الذي وضعه عنوانا لجميع مؤلفاته، فقد أصدر الكتاب قبل ثلاث سنوات من وفاته، وهذا ما يجعل منه خلاصة وثمرة مكتملة لأعماله، كما أنه أقرب كتبه إلى المنهج، أو هو كتاب شبه منهجي تفكيرا لبن نبي في الأفكار لذاتها بأسلوب انعكاسي، فهي ليست جملة تأملات فردية أو ذاتية بقدر ما جاءت فقها للسنن الاجتماعية، ويتناول بن نبي في الكتاب فكرة رئيسية وعدة أفكار أخرى فرعية.

الفكرة الرئيسية للكتاب

أهمية صناعة الأفكار ودورها المؤثر والفعال في بناء ونهضة الأمم وضرورة التجديد في الفكر الإسلامي ومواجهة التحديات الحديثة من خلال التفكير بشكل نقدي وإيجاد حلول مبتكرة لتعزيز التقدم والازدهار في المجتمعات الإسلامية، فإحدى معوقات تحقيق التقدم والتطور في المجتمع الإسلامي تكمن في العلاقة المتشابكة والغير متوازنة بين الأشخاص والأفكار والأشياء. لذا من الضروري أن يكون هناك توازن بين الأصالة والفعالية، حيث يتم الاستفادة من الأصالة في تكوين الهوية والقيم الثابتة، وفي الوقت نفسه يتم تطوير الفعالية والتكيف مع التغيرات والتحديات المعاصرة.

الفصل الأول: الإجابتان عن الفراغ الكون

يرى الكاتب أنه يمكن للإنسان أن ينظر إلى وجوده الكوني من منظورين، إما أن يركز على العالم المادي حوله والتركيز على الأرض، أو أن ينظر إلى العالم الروحي والفكري ويتجه إلى السماء.

ويشير إلى أن الثقافة المادية تهتم بالاستفادة المادية والفوائد الملموسة، بينما الثقافة الروحية تركز على الفكر والروحانية، وتستمد تلك القيم من الأديان والأنبياء.

ويوضح أنه في حين يُعتبر الشرق الأوسط مهدًا للرسالات السماوية، بينما أوروبا تعتبر خارج المنظومة الرسالية السماوية.. تعتبر اليونان الغربية مركزًا للجمال والشكل، بينما تمزج الثقافة الشرقية الإسلامية بين الحقيقة والخير. ويركز الفكر الإسلامي على الخير وتجنب الشر، فالحضارة الإسلامية تركز على الروح بينما الحضارة الأوروبية تركز على المادة.

فالفكر الغربي يجنَح على ما يبدو أساساً إلى الدوران حول مفهوم الوزن والكمِّ. وهو عندما ينحرف نحو المغالاة فهو يصل حتماً إلى المادية في شكلَيْها: الشكلِ البورجوازيِّ للمجتمع الاستهلاكي، والشكلِ الجدلِّي للمجتمع السوفياتي، وحينما يكون الفكر الإسلاميُّ في أُفوله كما هو شأنه اليوم فإن المغالاة تدفعه إلى التصوُّفِ، والمبهم، والغامض، وعدم الدقة، والتقليد الأعمى، والافتتان بأشياء الغرب.

> أوروبا رَكَّبت في مضمون ثقافتها مزيجاً من الأشياء والأشكال من التقنيّة والجماليَّة. بينما الشرقُ الإسلاميُّ رَكَّب في ثقافته مزيجاً من فكرتين: الحقيقةِ والخيرِ

> حينما يكون الفكر الإسلاميُّ في أُفوله كما هو شأنه اليوم فإن المغالاة تدفعه إلى التصوُّفِ، والمبهم، والغامض، وعدم الدقة، والتقليد الأعمى، والافتتان بأشياء الغرب.

الفصل الثاني: الطفل والأفكار

الإنسـان

1. الأشياء
2. الأفكار
3. الأشخاص

يرى الكاتب أن الإنسان يتعايش منذ طفولته مع ثلاثة عوالم: الأشياء، والأشخاص، والأفكار، والنمط الثقافي الاجتماعي هو الذي يحدد للشخص نوع عالمه المؤثر، ونتيجة لذلك يدفع الفرد ضريبة اندماجه في مجتمعه، بتأخير عالمه من أجل تقديم عالم الجماعة، لكنه لا يتخلى عن تفرده وتميزه بنمطه في النهاية، لأنه يمثل هويته الشخصية، والأفكار وسيلة اندماج الفرد في المجتمع وتتقايس فيه العوالم الثلاثة جنباً إلى جنب وتتفوق إحداها على الأخرى وفق نمط الثقافة.

ويرجع أن فكرة الشيخوخة وهي ليست للأفراد فقط بل والمجتمعات أيضاً إلى الإنحدار من عالم الأفكار إلى الأشخاص إلى الأشياء ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ ٥٤﴾، ففي الشيخوخة، يبدو الفرد يعكس خط سيره، ويعود القهقرى في مراحل حياته النفسية ويترك على التوالي

1- عالم الأفكار بفقده كل قدرةٍ خلاقةٍ.

2- عالم الأشخاص نتيجة اللامبالاة أو النفور.

3- عالم الأشياء نتيجة الضعف وعدم الإقبال.

شيخوخة الأفراد والمجتمعات

1. عالم الأفكار بفقده كل قدرةٍ خلاقةٍ
2. عالم الأشخاص نتيجة اللامبالاة أو النفور.
3. عالم الأشياء نتيجة الضعف وعدم الإقبال.

الفصل الثالث: المجتمع والأفكار

يرى بن نبي أن ما يميز المجتمعات عن بعضها هو ترجيحها لأحد العوالم الثلاثة (الشئ - الشخص - الفكرة) رجحان أحد هذه العوالم هو الذي يميز كل مجتمع عن سواه، وأن المجتمعات تشهد ثلاث مراحل هما: (مرحلة ما قبل التحضّر، ومرحلة التحضّر والدورة الحضارية، ومرحلة ما بعد التحضر).

ويرى أن مجتمع ما قبل التحضّر وما بعد التحضر لا يفتقر للوسائل وإنما للأفكار، فالمجتمع المتخلّف ليس موسوماً حتماً بنقيصٍ في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقارٍ للأفكار، يتجلى بصفةٍ خاصةٍ في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه؛ بقدر متفاوت من الفاعلية، في عجزه عن إيجاد غيرها، وعلى الأخصّ في أسلوبه في طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق؛ عندما يتخلى عن أيِّ رغبة ولو مترددة بالتصدّي لها. ويشير إلى أن المجتمع الإسلامي مرَّ بهذه المراحل الثلاث منذ العصر الأول وحتى سقوط دولة الموحِّدين، وهو الآن يعيش عصرَ ما بعد الحضارة، ويرى أن مجتمع ما بعد التحضر ليس مجتمعاً يقف مكانه، بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها.

دور الحياة في المجتمعات

1. مرحلة ما قبل التحضّر
2. مرحلة التحضّر والدورة الحضارية
3. مرحلة ما بعد التحضر

مجتمع ما بعد التحضر ليس مجتمعاً يقف مكانه، بل هو يتقهقر إلى الوراء بعد أن هجر درب حضارته وقطع صلته بها.

الفصل الرابع: الحضارة والأفكار

يرى الكاتب أن الحضارة هي نتاج فكرةٍ جوهريَّةٍ تدفع بها في التاريخ، فمبتدأ الحضارة: فكرة جوهرية متقدة، تحملها للعالم عوالم الروح، ثم تنكفئ على عوالم العقل، ثم تنغمس في عوالم الغرائز.

ويبني هذا المجتمع نظامه الفكريَّ طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته. إنّه يتجذّر في محيط ثقافي أصليٍّ يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى.

ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنويّة والماديَّة التي تتيح لمجتمع ما أن يوفِّر لكلِّ عضوٍ فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوُّره.

ويشير الكاتب إلى أن ما هو جدير بالملاحظة في تجربة المجتمع الإسلامي المعاصر: فهو أنه لم يستطع أن يستمد دفعة الإقلاع الحضاري من العالم الثقافي للصفوة من أبنائه الذين نالوا تعليمهم في الجامعات الغربية، كما لم يستلهم روح الحضارة من الإيديولوجيات العملية بإعطائها تلك الشعلة التي تلهب روح الجماهير للنهضة، ويشير إلى أن المعجزات الكبرى في التاريخ مرتبطة دائماً بالأفكار الدافعة، والإيديولوجية فهما من دفعت المجتمع السوفياتي أن يوقف في ستالينجراد زحف الجيش الهتلري خلال الحرب العالمية الثانية.

> إن إرادة المجتمع وقدرته تُضفيان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة- وهي جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد- وهي نفسها تتموضع في شكل سياسة، في صورة تشريع يمثلان إسقاطاً مباشراً لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعيّ والأخلاقيّ.

الفصل الخامس: الطاقة الحيوية والأفكار

يرى الكاتب أن لكل مجتمع طبيعته خاصة إذا كانت خلفيته الثقافية والفكرية مختلفة، لذا فتطبيق نفس الأفكار قد لاتؤدي إلى نفس النتائج، فقدرة أي فكرة على التكيف ليست متساويةً في مجتمعين لهما أصولٌ ثقافيةٌ مختلفةٌ، على سبيل المثال ففي المجتمع الأميركي المتمحور حول القيم التقنية، أي الموجه نحو عالم الأشياء، تكون قدرة التكيف أضعف منها في المجتمع الإسلامي المتمحور حول القيم الأخلاقية.

وفي الإطراد نفسه كما في المجتمع الإسلامي، على سبيل المثال، فإن القدرة على التكيف تتغير من مرحلة إلى أخرى، فهي تصل إلى الذروة في المرحلة الأولى في التطور: وهي تتناقص تدريجيّاً بمقدار ما توسع الفكرة الأصلية مكاناً لأفكار مكتسبة، ثم هي تتضاءل بمقدار ما تخلي هذه الأفكار الأخيرة مكانها للأشياء، أما في المرحلة الثالثة، فإن الغرائز تتحرر وعندها تتوقف قدرة التكيف الأصلية، ويختزل العالم الثقافي إلى مجرد عالم أشياء.

الفصل السادس: عالـم الأفكار

يرى الكاتب أن في المرحلة البدائية من التطور المجتمعي، يتميز المجتمع بوجود أفكار متوارثة تقليديًا تتجلى في المخزون الأخلاقي والعملي للمجتمع، وتعتمد تطبيق هذه الأفكار على الوسائل المادية المتاحة. وعندما يحدث تحول كبير في المجتمع، يتغير تفكير الأفراد بناءً على فكرة محركة تدفع التغيير، ويصبح الشخص الذي يتحكم في هذه الفكرة هو بطل أو قائد يعتبره المجتمع كشخص إلهي.

فإذا ما انتقل المجتمع إلى المرحلة التالية فاستقل سيرورة حضارة ما فإن تحوله هذا يستجيب بالضبط لثورة ثقافية تعدل بقليل أو بكثير وسائله التقنية، وفي الغالب يكون التعديل محدوداً، لكنها تقلب بصورة جذرية قاعدته الأخلاقية.

ويشدد الكاتب أنه لابد من احترام علاقات الأفكار بالمقاييس الثابتة للنشاط وإلاَّ باتَ ذلك النشاط عابثاً أو مستحيلاً، وحدد تلك العلاقات في ثلاث مراتب

1 - المرتبة الأخلاقية الإيديولوجية، السياسية بالنسبة لعالم الأشخاص وحتى الفزيولوجي.

2 - المرتبة المنطقيَّة الفلسفية، العلمية، بالنسبة لعالم الأفكار.

3 - المرتبة التقنية، الاقتصادية، الاجتماعية، بالنسبة لعالم الأشياء.

وحينما يفسد واحد من هذه المفاصل الثلاثة للفكرة بتأثير أي عاملٍ من العوامل فينبغي أن نتوقع رؤية نتائج هذا الفساد في أحكام ونشاطات المجتمع وسلوك أفراده.

علاقة الأفكار بالمقاييس الثابتة للنشاط

1 **المرتبة الأخلاقية الإيديولوجية، السياسية بالنسبة لعالم الأشخاص وحتى الفزيولوجي**

2 **المرتبة المنطقيَّة الفلسفية، العلمية، بالنسبة لعالم الأفكار.**

3 **المرتبة التقنية، الاقتصادية، الاجتماعية، بالنسبة لعالم الأشياء.**

أي فساد في علاقات الأفكار فيما بينها (مرتبة المنطق الفلسفة ... إلخ) أو في علاقاتها مع عالم الأشخاص (مرتبة الأيديولوجية - السياسة .. إلخ) أو في علاقاتها مع عالم الأشياء (مرتبة التقنية والاقتصاد ... إلخ) لابد أن يُوَلِّد اضطراباً، في الحياة الاجتماعية، وشذوذاً في سلوك الأفراد، وتصبح أفكارنا الموضوعة والمصبوبة في تلك القوالب لا شكل لها، ولا تماسك فيها، ولا أهمية لها. هكذا تموت الأفكار تاركة العقول فارغةً وحتى اللغات تستسلم للعجز. ويقع المجتمع في الطفولة. فالطفل دون أفكار يعبر بطريقة بدائية بالحركة أو بالصوت.

الفصل السابـع: الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة

يرى الكاتب أنه تم تطوير الأفكار المطبوعة المتوارثة وتكاثرت بفضل الأفكار المضافة من جيل إلى جيل. ومع مرور الوقت، تتلاشى هذه الأفكار تدريجيًا مع انحسار الأفكار الرئيسة، ففي البداية، تأتي الأفكار الجديدة مثل عاصفة تليها أمطار تروي النمو والازدهار، حيث تتلاشى الموارد القبلية والفردية وتمتزج مع أفكار الوحدة والأخوة والالتزام بسبيل الله الواحد. وتصبح طاقة المجتمع الجديدة إبداعية ومبدعة.

ويشير الكاتب إلى أن الأفكار الجديدة (الإسلام) لم تقم بتغيير الناس فقط من الخارج، بل غيرتهم في العمق داخل أنفسهم وضمائرهم، وفي المراحل اللاحقة) التراجع الحضاري) وبعد أن تلاشي تأثير الأفكار الرئيسة في المجتمع المسلم، لم يبقَ شيء منها سوى الجذور المدفونة في الأرض والعمق. وأصبح جسد الأمة يشبه «الرجل المريض» المستسلم لجراح العدو اللئيم (المستعمر)، الذي زرع فيه أعضاء غريبة (متنافرة مع ذاته) لإعادة إحيائه بالوهم والمسكنات، وهي غير قادرة على البقاء على قيد الحياة.

ويشبه الكاتب عالم الأفكار بأسطوانة يحملها الفرد في نفسه عند ولادته، وتختلف هذه الأسطوانة من مجتمع إلى آخر ببعض النغمات الأساسية، فأسطوانة كلّ مجتمع مطبوعة بطريقة تختلف عن أسطوانة مجتمع آخر، وتتناغم الأجيال والأفراد مع سلّمها الأساسي وهم يضيفون إليها أنغامهم الخاصة بهم، وعندما تخبو تلك الحساسية الأخلاقية والجمالية؛ فإن مقدار فنائها يدل على مقدار عدم تماسك عالم الأفكار وعلى انحطاط اجتماعي بصفة عامة، ويستمر هذا الانحطاط إلى اللحظة التي يقف فيها لحن الأفكار، وتتلف الأسطوانة وتَمَّحي في نفس كل فرد.

ويشدد الكاتب على أن المجتمع الإسلامي «اليوم» يدفع ضريبة خيانته لنماذجه الأساسية. فالأفكار - حتى تلك التي نستوردها- ترتد على من يخونها وتنتقم منه، إنها اللحظة المؤلمة حيث المسلم منشطرٌ إلى شخصين: المسلم الذي يتمم واجباته الدينية ويصلي في المسجد، ثم المسلم العملي الذي يخرج من المسجد ليغرق في عالمٍ آخر.

> المجتمع الإسلامي يدفع اليوم ضريبة خيانته لنماذجه الأساسية. فالأفكار - حتى تلك التي نستوردها- ترتد على من يخونها وتنتقم منه.

الفصل الثامن: جدليّة العالم الثقافي

يرى الكاتب أن إحدى أسباب ومعوقات تحقيق التقدم والتطور في المجتمع الإسلامي تكمن في العلاقة المتشابكة والغير متوازنة بين الأشخاص والأفكار والأشياء، حيث يرى الماديون أن تحسين البنية التحتية ينعكس بشكل إيجابي على البنية الفوقية، وأن النشاط البشري غالبًا يكون نتيجة تفاعل هذه العوامل الثلاث. ومن الممكن أن يتسبب التفريط أو الإفراط في أحدها، نتيجة لاختلال في التوازن، في تأخر التقدم والتطور نظرًا للتخلف الذي نعاني منه.

يشير الكاتب إلى أن المجتمع الإسلاميّ قد أدرك منذ قرنٍ نهاية أشواط حضارته. وهو اليوم من جديد في مرحلة ما قبل الحضارة. ومنذ قرنٍ تقريباً يحاول أن يتحرك من جديد لكن إقلاعه يبدو صعباً « لأنّ (نهضته) لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقةٍ تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق.»بالمقارنة مع مجتمعٍ (معاصر) كاليابان، أو مجتمع جاء إقلاعه متأخراً عنه؛ كالصين الشعبية.

ويشدد الكاتب على أن النقد البناء يلعب دورًا حاسمًا في تحديد خطة التنمية الاستراتيجية التي يجب اعتمادها لتحقيق التقدم والارتقاء، ويرى الكاتب أن الأمة تعاني من عدد من الجوانب أهمها

من الجوانب النفسية والأخلاقية، يسيطر الاهتمام بالأشياء على الفكر والتفكير. على سبيل المثال، يُعتبر الشعب في تلك الحالة ملكًا للحكومة بدلاً من أن يكون الحكومة تابعة للشعب.

من الناحية الاجتماعية، تُعطى أهمية كبيرة للأشياء في المؤسسات، ويصبح التركيز على الظهور الخارجي فارغًا من الغاية التي تم شراء الأشياء من أجلها.

من الناحية الفكرية، يتحول الاهتمام بالأفكار إلى الكمية بدلاً من الجودة يُقيّم الناس الأفكار بعدد الصفحات في الكتاب بدلاً من محتواها وإبداعها وجوهرها.

وفي السياق السياسي، يسيطر الأشخاص على الخطط والقيم، ويتم استبدال الأشخاص بآخرين كحل للمشكلات، وبالتالي تتلاشى الأفكار بعدم ملاءمتها، ويتم اعتبار الهزائم نتيجة للأشخاص بدلاً من العوامل الحقيقية التي تسببت فيها.

ويشدد الكاتب على أن أقلّ الناس اقتناعاً بالقيمة الاجتماعية للأفكار: هو في الغالب المثقف المسلم، وهذا يفسر لماذا فضَّل عددٌ لا بأس به من المثقفين الدوران في فلك بعض الأوثان، بدلاً من أن يكرسوا أنفسهم لخدمة بعض الأفكار، وهو ما أطلق عليه طغيان الأفكار؛ (إنه مرض نخبة المجتمع).

المجتمع الإسلاميّ أدرك منذ قرنٍ نهاية أشواط حضارته. وهو اليوم من جديد في مرحلة ما قبل الحضارة. ومنذ قرن تقريباً يحاول أن يتحرك من جديد لكن إقلاعه يبدو صعباً « لأنّ (نهضته) لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقةٍ تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق.

إن أقلّ الناس اقتناعاً بالقيمة الاجتماعية للأفكار: هو في الغالب المثقف المسلم، وهذا يفسر لماذا فضَّل عددٌ لا بأس به من المثقفين في الجزائر منذ ثلاثين عاماً الدوران في فلك بعض الأوثان، بدلاً من أن يكرسوا أنفسهم لخدمة بعض الأفكار.

الفصل التاسع: جدليّة الفكرة والشئ

يرى الكاتب أن للعالم الثقافي بنيةً (ديناميكية) تتوافق مظاهرها المتتالية مع علاقات متغيرة بين العناصر الثلاثة الحركيّة: الأشياء- والأشخاص- والأفكار.

ويرى الكاتب أن من أسباب تراجع الحضارة الإسلامية هو حالة الانفصام التي أصابت المجتمع مستشهدا بذلك بمقولة عقيل بن أبي طالب (إن صلاتي مع عليّ أقوم وطعامي عند معاوية أدسم).

ويشير الكاتب إلى أن هذه الحياة النفسية المنقسمة بين الطعام والصلاة كانت من أعراض بداية الصراع بين الفكرة والشيء. وقد واصل هذا الصراع طريقه منذ ذلك الوقت.

ويوضح أنه عندما فكر الإمام الغزالي بعد مضي أربعة قرون أن يجدد في العلاقة الدينية بين المجتمع المسلم والعالم الثقافي كان الأوان قد فات. فقد كانت المرحلة الثالثة من الحضارة قد بدأت، ولم يكن بمقدور المجتمع الإسلامي إلا أن يواصل انحداره حتى يصل إلى عصر ما بعد الموحدين.

الطغيان يمكن أن يتجلى في الأشياء والأشخاص والأفكار، سواء بزيادتها أو نقصانها، في بلدان متخلفة أو متقدمة على حد سواء

الفصل العاشـر: صراع الفكرة والوثن

يـرى الكاتـب أن القـرآن الكريـم أطلـق تسـمية الجاهليـة- أي الجهـل- علـى الوثنيـة التـي سـيطرت علـى الجزيـرة العربيـة قبـل الإسـلام ومـع ذلـك لـم تكـن تلـك الجاهليـة فقيـرة فـي صناعـة الأدب، فقـد حفلـت هـذه الفتـرة بألمـع الأسـماء. لكنهـا ظلـت تسـمى الجاهليـة لأن علاقاتهـا المقدسـة لـم تكـن مـع أفـكار وإنمـا كانـت مـع أوثـان الكعبـة. ويشـير الكاتـب إلـى أنـه عندمـا يتجسـد الفكـر فـي شـخص، يتـم إضفـاء هالـة مـن القدسـية والكمـال المزيـف عليـه، وبالتالـي ينتهـي الفكـر فـي عقـول النـاس والشـعب قبـل أن ينتهـي فـي أحضـان الزعيـم البطـل. يتحـول الفكـر إلـى عبـادة وثنيـة فـي هـذا الشـخص، ولا يكـون قابـلاً للتطويـر أو النقـد بسـبب التعصـب والعبوديـة المطلقـة التـي يحيـط بهـا.

إن السياسـة التـي تجهـل القوانيـن الأساسـية لعلـم الاجتمـاع- وهـو الـذي يعتبـر علـم بيولوجيـا البنـى والأجهـزة الاجتماعيـة- ليسـت إلا ثرثـرةً عاطفيـةً، ولعبـاً بالألفـاظ وطنطنـةً غوغائيـة

لقـد كان العـز بـن عبـد السـلام ينكـر علـى فقهـاء عصـره التقليـد الـذي يشـكل بالنسـبة للفكـرة الإسـلاميـة أول مظاهـر اسـتبدال الوثـن بالفكـرة، يعنـي المظهـر الـذي أعلـن نهايـة الاجتهـاد.

الفصل الحادي عشر: أصالة الأفكار وفعاليتها

يرى الكاتب أن الأفكار الأصلية تحتفظ بأصالتها وقدسيتها على مدار الدهور، حيث تعبر عن حقائق مستقلة عن التاريخ وتتمتع بطبيعتها القدسية، ومع ذلك، فإن فعالية تلك الأفكار ترتبط بالظروف والتاريخ، وقد تكون هناك أفكار ذات فعالية مؤقتة لكنها ليست أصيلة بالضرورة. فبعض الأفكار الباطلة قد تنشأ وتكتسب فعالية في ظروف معينة، وتعتبر تلك الفعالية نتيجة للظروف ولكنها ليست ثابتة ودائمة كالأفكار الأصيلة.

ويرى بن نبي أن أوروبا في القرن التاسع عشر قد أودعت قدرها في ثلاث كلمات: العلم، التقدم، الحضارة، فكانت هذه أفكاراً مقدسة سمحت لها أن ترسي داخل حدودها قواعد حضارة القرن العشرين، وأن تبسط خارج حدودها سلطتها على العالم، ولم تتكن أية معارضةٍ من مواجهة هذه الأفكار.

ويرى الكاتب أن آفة النخبة الإسلامية هو انغماسها في تقليد الحضارة الأوروبية ولا تدرك أصالة الحضارة الإسلامية، لأن الاحتكاك الضعيف مع الحضارة الأوروبية والضمير الإسلامي قد بدأ في أسوأ فتراته، وهنالك الكثير بين المثقفين المسلمين الذين يفتنون بالأشياء الجديدة، ولا يميزون بين حدود توافقها مع مهام مجتمع يريد أن ينهض دون أن يفقد هويته، فهؤلاء المفكرون يخلطون بين أمرين: الانفتاح الكامل على كل رياح الفكر، وبين تسليم القلعة للمهاجرين كما يفعل الجيش الخائن.

ويشدد بن نبي على أنه يجب على العالم الإسلامي أن يحافظ على أصالة فكره ويستعيد فعاليتها، وإلا فإنها ستصبح ضحية لمواجهة غير متكافئة، فيجب أن يثبت العالم الإسلامي أصالة فكره ويعيد إلى الأذهان القيم والمبادئ التي تميزت بها الحضارة الإسلامية في الماضي، مع الاستفادة من التقدم والعلم الحديث، ويتطلب ذلك تعزيز التفكير النقدي والتعلم المستمر، وتطوير المفاهيم الإسلامية في ضوء التحديات الحديثة.

ويشير إلى أنه من الضروري أن يكون هناك توازن بين الأصالة والفعالية، حيث يتم الاستفادة من الأصالة في تكوين الهوية والقيم الثابتة، وفي الوقت نفسه يتم تطوير الفعالية والتكيف مع التغيرات والتحديات المعاصرة. إن الأفكار الأصيلة التي تحافظ على قيم العدل والتسامح والمحبة والعلم والتقدم، يمكنها أن تكون قوية وفعالة في أي زمان ومكان.

آفة النخبة الإسلامية هو انغماسها في تقليد الحضارة الأوروبية ولا تدرك أصالة الحضارة الإسلامية، فهؤلاء المفكرون يخلطون بين أمرين: الانفتاح الكامل على كل رياح الفكر، وبين تسليم القلعة للمهاجرين كما يفعل الجيش الخائن.

لقد أودعت أوروبا القرن التاسع عشر قدرها في ثلاث كلمات: العلم، التقدم، الحضارة. فكانت هذه أفكاراً مقدسة سمحت لها أن ترسي داخل حدودها قواعد حضارة القرن العشرين، وأن تبسط خارج حدودها سلطتها على العالم.

الفصل الثاني عشر: الأفكار وديناميكا المجتمع

يرى الكاتب أن الفكرة الناجحة تكتسب قوة المصداقية، وأن مشاكل الأمة الإسلامية هي مشاكل منهجية وليست سلوكية فقط. وإثبات صحة الأفكار يتطلب العمل وتحقيق النجاح، وليس الاعتماد على القناعات الشخصية فقط.

يؤكد الكاتب أنه لا يكفي أن نعلن عن قدسية القيم الإسلامية، بل علينا أن نزوِّدها بما يجعلها قادرة على مواجهة روح العصر، وليس المقصود أن نقدم تنازلات إلى الدنيوي على حساب المقدَّس، ولكن أن نحرر هذا الأخير من بعض الغرور الاكتفائي والذي قد يقضي عليه.

ويشير إلى أن اليابان انطلقت بأقل الإمكانيات ونجحت، بينما انطلقت إندونيسيا بأوسع الإمكانيات وفشلت، وذلك بسبب الاختلاف في منهج الانطلاق بين البلدين، فالنجاح مرتبط برأس المال الفكري بدلاً من الأموال المادية.

مشاكل الأمة الإسلامية هي مشاكل منهجية وليست سلوكية فقط، وإثبات صحة الأفكار يتطلب العمل وتحقيق النجاح، وليس الاعتماد على القناعات الشخصية فقط.

الفصل الثالث عشر: الأفكار والاطّراد الثوري

يرى الكاتب أن تاريخ الثورات في العالم يظهر كم أن مصيرها هشٌ؛ وغير مؤكد بعد انطلاقها، حيث إن المشاركين فيها ليسوا موحدين في الفهم والضمير لتحقيق أهدافها، مما يجعلها عرضة للاختراق والفشل، خاصة من قبل الاستعمار وأتباعه، والحكام الذين يعملون تحت اسم الدولة العميقة وفقًا لمصطلح العصر.

ويشدد الكاتب على أن المشكلة في عالمنا الإسلامي هي إتباع الأشخاص بدلاً من الأفكار، وشخصية الرئيس في بلداننا تُصوَّر وفقًا لمصلحة المستعمر، سواء كان يدرك ذلك أم لا، ويتم ذلك من خلال إغلاق نوافذ النقد البناء والمحاسبة المنظمة. ويحل محل انتصار الشعب وأفكاره انتصار شخص يُجعل رمزًا للتسليم والاستسلام والركود.

ويشير إلى أن الثورة لا تقوم من الارتجال، فالروح الثورية الحقيقية تسير وفق خطةٍ جاهزةٍ مُكْتشفةٍ، أو تنتهج طريقة الاكتشاف الْمُخَضَّر حيث يكون التطبيق دقيقاً على الدوام وعلى درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة الفنية، وفي البلاد الإسلامية قد يولد التطور الثوري منذ يومه الأول على شكل ثورةٍ مضادة مقنعة أطلقت في الوقت المناسب؛ لتسبق إلى احتلال مراكز استراتيجية قبل أن تحتلها ثورة أخرى أصلية.

ويرى الكاتب أن أساتذة الصراع الفكري يعرفون بأن التعامل مع وثنٍ هو أسهل من التعامل مع فكرة. والتابعون لهم من أبناء البلاد هم من الرأي نفسه: يعرفون أن استغلال النفوذ أسهل مع الأشخاص منه مع الفكرة. والجوهري بالنسبة لهؤلاء وأولئك: هو أن لا يدع الإطراد الثوري يتمحور حول فكرة.

تاريخ الثورات في العالم يظهر كم أن مصيرها هشٌ؛ وغير مؤكد بعد انطلاقها، حيث إن المشاركين فيها ليسوا موحدين في الفهم والضمير لتحقيق أهدافها، مما يجعلها عرضة للاختراق والفشل.

المشكلة في عالمنا الإسلامي هي إتباع الأشخاص بدلاً من الأفكار، وشخصية الرئيس في بلداننا تُصوَّر وفقًا لمصلحة المستعمر، سواء كان يدرك ذلك أم لا، ويتم ذلك من خلال إغلاق نوافذ النقد البناء والمحاسبة المنظمة.

الثورة لا تقوم من الارتجال، فالروح الثورية الحقيقية تسير وفق خطةٍ جاهزةٍ مُكْتشفةٍ، أو تنتهج طريقة الاكتشاف الْمُخَضَّر حيث يكون التطبيق دقيقاً على الدوام وعلى درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة الفنية.

الفصل الرابع عشر: الأفكار والسياسة

يرى الكاتب أن سياسة الحرب في أعلى مستويات الأفكار السياسية، شرط أن تكون الثقة متبادلة بين العسكريين والسياسيين، مشيراً إلى أن تصرف أبي بكر الصديق بعد وفاة رسول الله وارتداد بعض العرب، وردع هؤلاء عسكرياً كان قمة في الوعي السياسي، وبعد انتصاره، لم يتوقف عن تسيير الجيوش إلى فارس والروم، لإشغال العرب عن التفكير في التمرد، إلى إشغاله بالطاعة والجهاد، فكان مصيباً وحازماً وذكياً معاً، والثقة أعلى مصادر وعوامل النجاح والتقدم.

ويوضح الكاتب أن الشريعة الإسلامية جسّدت هذه الفلسفة السياسية في العلاقة المتبادلة بين المحكوم والحاكم. فعلى المواطن: السمع، والطاعة. لكنه في الوقت الذي يلحظ فيه تجاوزاً من رجل السلطة لأحكام الشريعة يرفض السمع والطاعة.

ويوؤكد أن النزاهة وحدها لاتكفي بل يجب أن تضاف إليها الكفاءة وأكثر من ذلك الملاءمة، مشيراً إلى أن هناك أكثر من حاكم عزله عمر وكان الخليفة يقول: (ليس لطعنٍ في نزاهته ولا لنقصٍ في كفاءته).

فالمدينة المسلمة ليست حشداً مزيجاً من طوائف اجتماعية مختلفة، بل إنها بوتقة جماعة وحدتها الثقةُ المتبادلة بين سائر أفرادها محكومين وحاكمين، فالسياسة لابد لها أن تكون: أخلاقية، جمالية، علمية، لكي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ.

إن النزاهة والكفاءة صفتان مطلوبتان في رجل السلطة مهما كانت مرتبته.

والمدينة المسلمة تأسست على هذه المجموعة من الفضائل في رجل السلطة وفي المحكومين. ولأجل العمل على حفظ هذه الفضائل، أنشأ الفقه الإسلامي نظام (الحسبة)، هذا النظام الذي يشبه من بعيد ما يسمّى اليوم (بالنقد الذاتي)، والنقد من أجل مراقبة استمرارها الفعال وفاعليتها في الحياة العامة.

فالمدينة المسلمة ليست حشداً مزيجاً من طوائف اجتماعية مختلفة، بل إنها بوتقة جماعة وحدتها الثقةُ المتبادلة بين سائر أفرادها محكومين وحاكمين.

الفصل الخامس عشر: الأفكار وازدواجية اللغة

يوضح الكاتب أن من بين الظواهر العديدة المتصلة بالهياكل: الاقتصادية، والاجتماعية، والإدارية، التي غرسها المستعمر خلال العصر الاستعماري ظاهرةً (ازدواجية اللغة) التي تتعلق ببُناه الثقافية والعقلية، وبأفكاره، وحتى أن البلاد الإسلامية التي لم تعرف الحضور الفعلي- الإداري والعسكري- للغرب لم تَسْلَمَ بقليلٍ أو كثير من الحدة مؤثرات ثقافته.

وهكذا فإن الانشقاق الذي أدخلته ازدواجية اللغة في العالم الثقافي للبلد الإسلامي؛ ليس فقط ذا طابع جمالي بل هو ذو طابع أخلاقي وفلسفي، حيث يمكننا أن نرى الانشقاق الذي أحدثته ازدواجية اللغة أكثر عمقاً، إذ أنه يتناول القمة والقاعدة، فالبلاد لم تعد تحتوي نخبتين؛ وإنما مجتمعين متراكبين: أحدهما يمثل البلاد في وجهها التقليدي والتاريخي، والثاني يريد صنع تاريخها ابتداءً من الصفر.

فالأفكار المطبوعة للأولين والأفكار الموضوعة للآخرين؛ لا تستطيع التعايش في عالمٍ ثقافي واحد، فالمجتمعان يتحدثان بلغتين مختلفتين، وهكذا تحدث الناس بالتدرج عن (الجندي) الذي كان فيما مضى (المجاهد) واجتاز النقاش بعد ذلك الألفاظ إلى البُنَى فاختفى (النظام) وحلت محلّه التراكيب الجاهزة؛ فأقل ما يمكن قوله في هذا المقام: هو أن ازدواج اللغة يمكن أن يتولد عنه نتائج تتعارض كلياً مع الثقافة الوطنية.

الفصل السادس عشر: الأفكار الميِّتة والأفكار الْمُمِيتة

يعتبر الكاتب أن هواة الأصولية في العالم العربي أشخاصًا يركزون بشكل مفرط على الشكل بدلاً من المضمون، ويعتقدون أن إغلاق أذهانهم أمام الثقافة الغربية أو الشرقية سيحميهم من التدهور الذي هم بالفعل غارقون فيه. ويرى أنهم يحذرون من الأفكار الغربية التي يعتبرونها قاتلة، ويتجاهلون حقيقة أنهم أنفسهم يحملون أفكارًا ميتة نتج عنها التخلف. فمنذ فقدان مجتمعاتنا للقدرة على التأثير، أصبحوا جائعين وعراة وشقياء ومتعبين.

من الجدير بالذكر أن اليابان والعالم الإسلامي قد تعاملا مع الغرب بعد الحرب العالمية، ولكن اليابان تمكنت من النهوض وتحقدمت تطوراً كبيراً، في حين أننا لم نستفد بنفس القدر وواجهنا المزيد من التشرذم والانحطاط. ويعود السبب في ذلك إلى نوع العلاقة التي اختارتها كل من اليابان والعالم الإسلامي مع الغرب. فاليابان اختارت علاقة تحرر وتعاون، بينما اخترنا نحن علاقة تبعية واتهام الآخرين، مما جعلنا نرتدي كمامات تعوق رؤيتنا البناءة وتثقلنا.

ويرجع الكاتب هذه الحالة من التراجع إلى الأفكار الميتة التي نتجت عن إرثنا الاجتماعي بالإضافة إلى الأفكار الْمُميتة المستعارة من الغرب.

هواة الأصولية في العالم العربي أشخاصًا يركزون بشكل مفرط على الشكل بدلاً من المضمون، ويعتقدون أن إغلاق أذهانهم أمام الثقافة الغربية أو الشرقية سيحميهم من التدهور الذي هم بالفعل غارقون فيه.

الفصل السابع عشر: انتقام الأفكار المخذولة

يميز الكاتب بين الفكرة الميتة والفكرة المميتة، فالفكرة الميتة: هي الفكرة التي بها خذلت الأصول، فكرةٌ انحرفت عن مثلها الأعلى؛ ولذا ليس لها جذورٌ في العصارة الثقافية الأصلية.. أما الفكرة المميتة: هي الفكرة التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين بعد ما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي.

ويرى الكاتب أن الأمراض الاجتماعية، شبيهة بالأمراض العضوية، وجميع التغيرات الخارجية تسبقها تغيرات داخلية، فتاريخ البشرية يضعنا أمام نوع آخر من الأمراض يصيب المؤسسات والتنظيمات وحياة المجتمع، وفي هذه المرة فالعدوى تنتقل من جيل إلى آخر.

ويشير إلى أن ما حدث بعد مرحلة الراشدية كان نتيجة لبعض ما سبقها من تغييرات لم تستوعبها المرحلة، فجاء جيل جديد، على غير ما سبقه من جيل الصحابة، ونشأت مدرسة جديدة بعد المدرسة النبوية الراشدية، وهذا ما أدركه ابن عباس فقال للحسين، يثنيه عن خروجه: « هؤلاء الناس سيخذلونك كما خذلوا أباك، لا تصدقهم، فإن قلوبهم معك، وسيوفهم مع يزيد».

ويرجع الكاتب سلوك المسلم اليوم لأنه يرتبط بتنكر مزدوج فالمسلم فقد الاتصال بالنماذج المثالية لعالمه الثقافي الأصلي وهو لم ينشئ كما فعلت اليابان الاتصال الحقيقي بالعالم الثقافي الخاص بأوروبا، ونحن اليوم نقاسي هذا التدهور المزدوج، فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك لها انتقامٌ رهيب.

الأمراض الاجتماعية، شبيهة بالأمراض العضوية، وجميع التغيرات الخارجية تسبقها تغيرات داخلية، فتاريخ البشرية يضعنا أمام نوع آخر من الأمراض يصيب المؤسسات والتنظيمات وحياة المجتمع، وفي هذه المرة فالعدوى تنتقل من جيل إلى آخر.

سلوك المسلم اليوم لأنه يرتبط بتنكر مزدوج فالمسلم فقد الاتصال بالنماذج المثالية لعالمه الثقافي الأصلي وهو لم ينشئ كما فعلت اليابان الاتصال الحقيقي بالعالم الثقافي الخاص بأوروبا، ونحن اليوم نقاسي هذا التدهور المزدوج

الخـــــاتمـــة

يرى الكاتب أن العالم الإسلامي اليوم تتقاذفه أفكار متناقضة، ولم تؤصل فيه المواجهة بالنموذج السلفي أو غيره، مع وجود عدد لا بأس به من المصلحين، الذين أدلوا بدلائهم في مسيرته، وفشلت محاولات جره إلى الشيوعية أو الرأسمالية، لأن هذه أفلست كذلك في عقر دارها، ولهذا نحن بحاجة إلى توليد طرق وأفكار تنبع من أصالتنا، وتطبيقها بلغة عصرية، ووسائل عصرية، وأدوات عصرية، لأن ما تجاوزه العصر يعتبر تحفة في متحف التاريخ، لا ينبغي أن نحسبه مائدة السماء لكل العصور، لكن مصدر هذه المائدة لكل العصور، لأنه تشريع صالح لكل زمان ومكان، ولكن هذه الأزمنة والأمكنة ظروف متغيرة، نختار ما يلائم مائدة السماء منها ليكون الإناء الجديد لطعام قديم، عليه مسحة من بهارات اليوم وزخرفاته، وروح المعاني الخلاقة السامية لا يختلف، ولكن الدعوة إلى إنزالها على أرض واقع الناس وظروفهم هو الذي يختلف، لأن الله جعل شرعته هكذا قابلة للتجدد والمحتوى واحد لا يتغير.

فنحن لا نستطيع أن نصنع التاريخ بتقليد خُطا الآخرين في سائر الدروب التي طرقوها، بل بأن نفتح دروباً جديدة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بأفكار أصلية تستجيب لسائر المشكلات على الصعيد الأخلاقي، أو على صعيد الأفكار الفعّالة؛ لتجابه مشكلات التطور في مجتمع يعيد بناء نفسه.

نحن لا نستطيع أن نصنع التاريخ بتقليد خُطا الآخرين في سائر الدروب التي طرقوها، بل بأن نفتح دروباً جديدة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بأفكار أصلية تستجيب لسائر المشكلات على الصعيد الأخلاقي، أو على صعيد الأفكار الفعّالة؛ لتجابه مشكلات التطور في مجتمع يعيد بناء نفسه

غراس

للإنتاج الفكري